



الفسيفساء روعة العمارة العربية والإسلامية

بقلم : عبد الجبار محمود السامرائي
الجمهورية العراقية - بغداد

ومن الأجزاء الأخرى التي تغطيها الفسيفساء في قبة الصغرة : المنطقة العليا من التشمينة الدائرية ، أي الداخلية وتشمل الجزء العلوي من الاسطبلين أو الاكتاف الأربعة ، ثم كوشات العقود . ومن تلك الأجزاء كرسى القبة أو رقبته . وقد حدث في بعض أجزاء الفسيفساء بقبة الصغرة ترميم وإصلاح في عصرى الفاطميين والمماليك ، ولكن روعى فيهما المحافظة على جوهر الرسوم القديمة .

وتتألف هذه الفسيفساء من مكعبات صغيرة مختلفة الحجم من الزجاج الملون وغير الملون والشفاف وغير الشفاف ومن مكعبات من الحجر الأبيض أو السوردي ، ومن صفائح صغيرة من الصدف . وكلها مثبتة على طبقة من الاسمنت في وضع أفقي تام . الملمع إلا المكعبات ذات اللون الذهبي أو الفضي . فإنها موضوعة بميل قليل لتعكس الضوء . أما سائر الألوان الغالية على هذه الفسيفساء . فالأخضر بدرجاته المختلفة ، والأزرق والبنفسجي والأبيض والأسود .

والموضوعات الزخرفية التي نراها في فسيفساء قبة الصغرة كثيرة جداً . ومن بينها فروع نباتية متصلة وحلزونية تخرج من آنية ، ويقع بين كل فرعين خارجين من أناء موضوع زخرفي يشبه الشمعدان و فوقه زخرف ساسانية مجنعة . كما نرى من بينها أشجار نخيل وأشجاراً أخرى . تذكر بما نعرفه في فسيفساء بعض الكنائس المسيحية في القرن السادس الميلادي . ومن بينها أيضاً رسوم الفاكهة ، ولاسيما العنب

الفسيفساء : كلمة مشتقة من اللغة اليونانية . والمقصود بها : الموضوعات الزخرفية المؤلفة بواسطة جمع أجزاء صغيرة ومتعددة الألوان من الزجاج أو الحجر ، وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض ، فوق الجص أو الاسمنت . وقد تكون هذه الموضوعات الزخرفية هندسية أو نباتية أو رسوم كانتات حية . والأغلب أن تكون تلك الأجزاء الصغيرة مكعبات دقيقة (١) .

ولعل أيدع ما وصل إلينا من الفسيفساء في العصر الإسلامي هي : فسيفساء (قبة الصغرة) ، وفسيفساء (المسجد الجامع) في دمشق ، و (قصر المجر) ، وسواها في العصور الغالية .

١ - فسيفساء قبة الصغرة :

كانت الفسيفساء تغطي الجدران الخارجية في قبة الصغرة ، ولكن لم يبق شيء الآن من هذه الفسيفساء إلا الذي لا يزال محفوظاً إلى اليوم ، فالفسيفساء التي تغطي بعض الأجزاء الداخلية . ولا ريب في أن قسماً كبيراً من هذه الفسيفساء المحفوظة ، يرجع إلى سنة ٧٢ هـ . كما تشهد بذلك كتابة الخط الكوفي البسيط من الفسيفساء المذهبة عرارية زرقاء . وتقع في أعلى التشمينة الداخلية بجوار السقف . وتضم هذه الكتابات : آيات قرآنية .



زهرة بأوراق الاكانتس من القيسية سنة ٦٩١ م
قبة الصخرة - بيت المقدس .



صورة وردية بالقيسية سنة ٦٩١ م قبة الصخرة في
بيت المقدس .

• ثerman . تم رسوم أوراق الشجر المختلفة وورق الاكانتس
وباقات الزهور وقرون الرخاء . ورسوم الجواهر والعل
المختلفة بالرسوم النباتية ، فضلا عن رسوم الالهة والنجوم
ومعظم هذه الموضوعات الزخرفية معروضة في زخارف
القيسية الرومانية والمسيحية ، ومستمدة من الطرازين
الساساني والهلنستي .

والواقع اننا نرى في زخارف القيسية بقية الصخرة
التقاء عناصر فنية مختلفة ، نعرفها في الاساليب الفنية
الاغريقية والرومانية ، ولكنها في هذا الاثر الاسلامي العظيم
استلقت بعناصر فنية شرقية المصدر ، وتميزها عن سائر
القيسية الاغريقية الرومانية والمسيحية . (٢)

وقد درست الانسة (فان برشم) كل النصوص التي
تحدثت عن القيسية في قبة الصخرة ، وانتهى بها البحث
الى ان هذه القيسية من صنع عمال سوريين بوجه عام
وليس من صنع عمال يزنطيين ، وان من المحتمل ان يكون
بعض صناع من اجناس مختلفة قد اشتركوا مع الصناع
السوريين . وان ذلك قد يفسر وجود بعض العناصر الساسانية
في زخرف هذه القيسية (٣) ولكننا نلاحظ ان اشترك عمال
من ايران ليس واردا لتفسير الموضوعات الزخرفية الساسانية
لان معظم هذه الموضوعات كان قد انتقل الى الشام واقبل
الصناع السوريون على استعماله (٤) .

٢ - قيسية الجامع الاموي :

اما قيسية الجامع الاموي الكبير في دمشق ، الذي
انشاه (الوليد بن عبد الملك) فيمتاز عن جميع الاعمال
التصويرية الجدارية الاخرى بموضوعاته واسلوب الفن فيه .

اما موضوعاته فهي : قصور ومنتشات وجسور وابراج
واروقة محاطة بالاشجار ، ويقع أغلبها على حواف الانهار
والبرك ، ولا يوجد بين هذه المواضيع محل لاشخاص او
حيوانات ، ومما لاشك فيه ان الفنانين تعاشوا ذلك نظرا
لان هذه الرسوم تزين مكانا مقدسا يمارس الناس فيه العبادة
فلا يجوز ابراز وجوه ترتفع الى مكانة القدسية ، وتذكر بأيام
الجاهلية وعبادة الاوثان .

ولقد اختلف في تفسير هذه المواضيع ، رأى يعتقد ان
هذه الصور تمثل دمشق ونهر بردى ، وبعض يرى ان هذه
الصور تمثل مدينة مقدسة . اما المؤرخ الجغرافي (المقدسي)
(١٩٨٥ م) فيقول انها صورة العالم (ومن العسير ان تكون
هناك شجرة او مدينة لم تصور على تلك الجدران (٥) .

اما (ريتشارد ايتنكهاوزن) فيرى : « من العسير على
المرء ان يتصور دليلا أقوى لسلطة عالمية - أي سلطة الاسلام -
تمارسها دولة جديدة أكثر مما وجدناه معروضا في هذه
الزخارف القيسية التي يضمها الجامع الرئيسي في
العاصمة دمشق » . (٦)

ويرى (غرابار) في كتابه (تكوين الفن الاسلامي) :
« ان هذه الصور تعبير عن الجنة التي وعد الله بها المؤمنين
الأتقياء ، والتي تهفو لها قلوب العرب الظائمة الى فردوس
الحياة » . (٧)

اما اسلوب الفن فهو بعيد عن الساسانية بل فيه مسحة
سورية محلية ، ولكن أهم ما فيه :



١ - ألوانه الفسيفسائية قريبة من ألوان فسيفساء قبة الصخرة في القدس الشريف . ويهيمن اللون الذهبي على الغلفيات والقضاء مما يعطى اللوحة طابع الغنى .

٢ - يشترك في الصور ثلاثة أنواع من المنظور ، المنظور الخطي ، الذي يبدو في حالته البدائية ، بل أنه يشبه المنظور الهندى ، على الرغم من أنه سابق لوجوده . ثم نرى بعض المواضع تقوم على المنظور الصمى الذى يجعل نقطة النظر خلف الناظر فيشعر الانسان أنه مدمج بالمشهد معاط به . ثم المنظور الروحى الذى الاسلامى الذى يبدو فى كثير من المواضع التى أخذت طابع الزخرفة .

٣ - يبدو التظليل نمطيا بوضوح ، وتنقلب درجات النور الى خطوط من الالوان المتتابة . (٨)

٤ - التأثر بالاساليب الهلنستية ويبرز هذا التأثير أقوى من فسيفساء قبة الصخرة ، مع أن القبة ترجع الى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) بينما يرجع الجامع الاموى الى سنة (٩٦هـ) (٧١٥ م) . (٩)

وصفوة القول : ان قوام زخارف الفسيفساء فى الجامع الاموى رسوم العماثر والمناظر الطبيعية لذاتها ، وبغير أن تكون ثانوية فى الصورة ، بالنسبة الى صور آدمية لها الصدارة كما نعرف فى بعض زخارف الفسيفساء البيزنطية .

وتكثر فى العماثر المرسومة فى فسيفساء الجامع الاموى رسوم الاعمدة الكورنثية ذات الغشخان أو القنوات الطويلة ورسوم الاقبية والابرار والسقوف المغروطة الشكل والسقوف ذات الجملون وأشجار السرو .

ويمكننا أن نقول بوجه عام ، ان الصناعة واحدة فى فسيفساء قبة الصخرة وفسيفساء الجامع الاموى ، ولكن الوحدة والتلاؤم أقل ظهورا فى الأخيرة ، ولعل ذلك راجع الى أن الإصلاح والترميم الذى تم فيها كان أكثر مما تم فى قبة الصخرة . والراجع أن الجزء الذى جاء فيه رسم النهر يرجع الى عصر الوليد بن عبد الملك فى نهاية القرن الاول الهجرى وبداية القرن الثامن الميلادى ، بينما ترجع أجزاء أخرى الى الترميم الذى تم فى عصر السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٣ م) وترجع غيرها الى عصر السلطان بيبرس (١٠) .

٣ - قصر المفجر :

ومن أبداع أمثلة الفسيفساء فى العصر الاموى ، تلك التى كشفت فى قصر هشام بغربة (المفجر) ، ثم ماكشف فى خربة المنية بفلسطين أيضا (١١) .

ان شجرة التفاح التى تزين أرض حنية فى حمام قصر المفجر (اريحا - فلسطين) من أهم الالواح التى تثير مشكلة فنية خاصة هى وتوابعها ، اللوحة الزخرفية التجريدية الدائرية

ان صورة الشجرة واقعية الاسلوب ، ولقد تفنن صانعيها فى التعبير عن المنظور الهوائى ، فبدت الالواح ذات أبعاد فى الفراغ تجلت بتأثير حسن ترتيب الالوان وتركيز تضادها . ويبدو التحجيم دقيقا فى تكوين الاسد والغزلان الثلاثة فى اسفل الشجرة ، فلكل كان التظليل شديد الوضوح مفيدا فى التعبير عن التشريح والحركات .

على أن البساط الفسيفسائي الذي يغطي أرض قاعة الاستقبال في حمام القصر ، يعتبر رائعة لامثيل لها في فن التصوير التجريدي ، بل هي تدخل في صميم الفن البصري ، وهي مؤلفة من حصرة طولانية مؤلفة من بلاطات فسيفسائية مربعة ومتشابهة وفي منتصفها دائرة فيها تخطيطات ملونة اشعاعية معاطة بضيقة ذات تظليلات واقعية - ونحن لانستطيع تحديد مصدر لهذا النوع من التصوير ، كما اننا لانرى مثيلا له فيما بعد بين آثار التصوير العربي (١٢) •

صناعة الفسيفساء في العصر العباسي

ولم تصل اليها نماذج كافية من صناعة الفسيفساء في العصر العباسي • ولذا كان كل مانعرفه في هذا الميدان قائما على ماكتبه المؤرخون العرب ، وعلى بعض نماذج ضئيلة عثر عليها المنقبون في حفائر (سمرا) (١٣) وذلك في أطلال قصور الخلفاء والمسجد الجامع ، وبعض البيوت الكبيرة ولكن هذه النماذج التي عثر عليها ليست في حالة جيدة • ولا يمكننا ان نتبين الموضوع الزخرفي الا على قطعة واحدة منها ، وجدت في حمام القصر الكبير • وأرضية هذه القطعة ذهبية اللون ، وتقوم فوقها رسوم شرع نباتي من أوراق الاكانتس بلون أخضر مختلف الدرجات ، فضلا عن رسوم الازهار وأوراق الشجر المختلفة • (١٤)

وقد ذكر (الغزولي) في كتابه (مطلع البدور) : ان بغداد كان فيها حمام في دار أحد الامراء فيه خلوات أو أجزاء مستقلة ، احداها (مصورة بقصوص حمر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر ، فاما الاخضر فقليل انه حجارة تأتي من الروم والمذهب فهو زجاج ملبس بالذهب) •

والراجح أن أساليب الزخرفة بالفسيفساء في العصر العباسي لم تختلف كثيرا عن الأساليب التي عرفناها في العصر الأموي ، وانها كانت مثلها متأثرة بالأساليب الهلنستية لاسيما ونحن نعرف ان بلاد العراق كان فيها صناع فسيفساء من الروم منذ القرن الاول قبل الاسلام ، وكثير ما تشير المصادر التاريخية العربية في فجر الاسلام الى ورود الفسيفساء واستقدام صناعتها من بيزنطة •

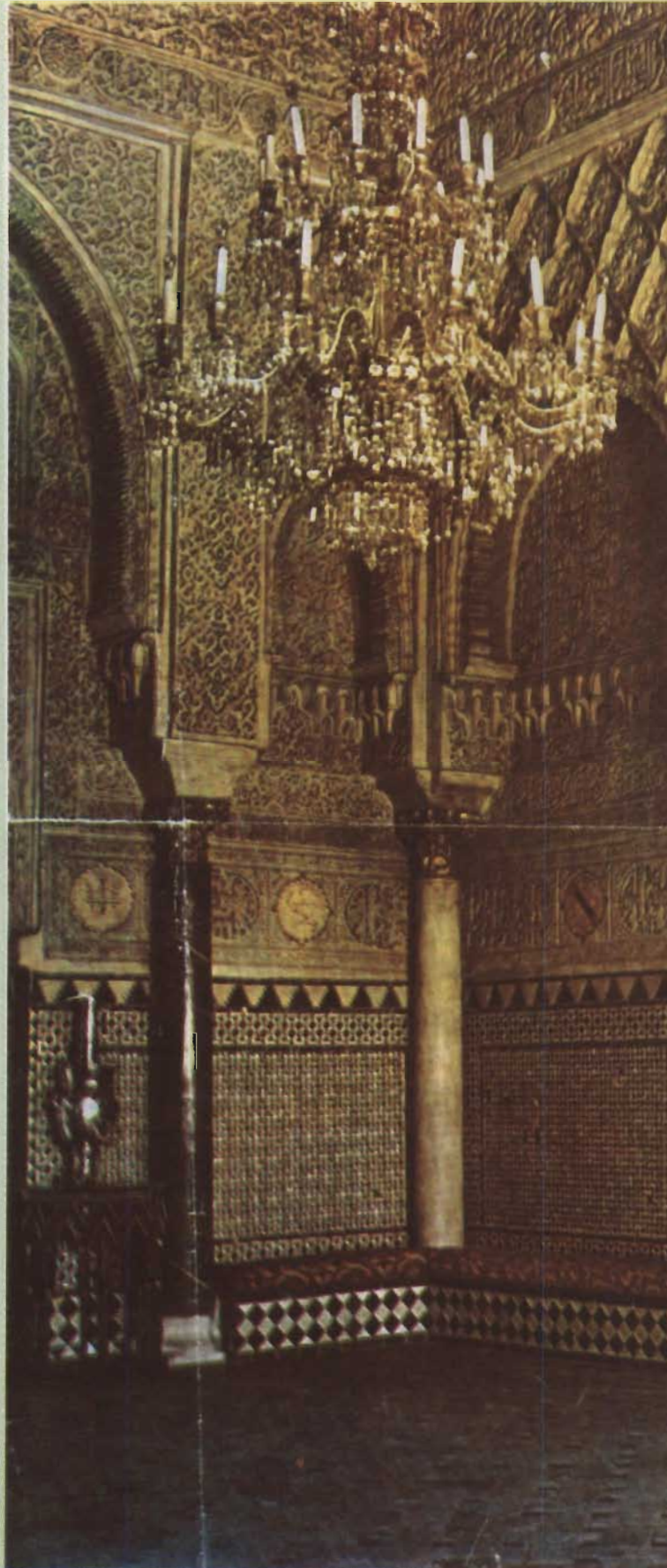
ومما نعرفه عن الفسيفساء في العصر العباسي ما ذكره (المقدسي) عن اصلاح الكعبة على يد الخليفة المهدي ، وعن تغطية جدران ردهاتها بالفسيفساء بواسطة فنانين من الشام ومصر • (١٥)

صناعة الفسيفساء في العصر السلجوقي

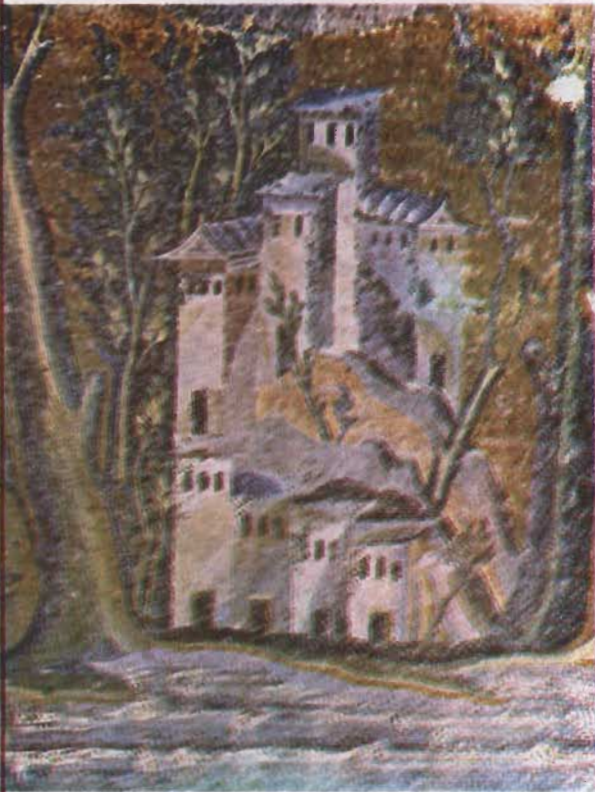
ومما يمكن الحاقه بصناعة الفسيفساء في العصر السلجوقي ، كنوة الجدران بقوالب من القرميد توضع على هيئة الفسيفساء ، وتؤلف جوانبها الضيقة أشكالا متعددة الاوضاع ، وأطباقا نجمية تحفر في حشواتها شتى الفروع النباتية والرسوم الهندسية • (١٦)

الفسيفساء الاندلسية

ومن هذه الفسيفساء التي نعرفها في بلاد الاندلس ، الموضوعات الزخرفية النباتية والكوفية التي تزين محراب الخليفة (الحكم) في المسجد الجامع بمدينة قرطبة والقباب الواقعة امام هذا المحراب ، ولكن هذه الفسيفساء بيزنطية (١٧)



ايوان قصر (الوسط) مسكن خاص (الى اليسار)
مع باب (الى اليمين) بالفسيفاء سنة ٧١٥ م ، زُخرف
صنية على داخل الرواق الغربى لباحة المسجد الكبير •



منظر نهري مفصل : ميدان سباق الخيل بالفسيفاء
سنة ٧١٥ م على الجدار الغربى من رواق المسجد الكبير فى
دمشق •

الاسلوب ولا تكاد تختلف عن سائر الفسيفاء البيزنطية
المعاصرة لها فى القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى» (١٨)
وتكشف الفسيفاء عن الروح البيزنطية التى كانت
شائعة فى الفن الاسلامى فى سنيه الاولى . ويؤيد
(ابن عذارى) هذه الحقيقة فى تاريخه ، من أن الخليفة
(الحكم) بعد أن وسع مسجد قرطبة ، طلب الى امبراطور
بيزنطة ارسال كمية من قصوص الفسيفاء ، كما طلب اليه
ايضا ايقاد بنض الصناعات من تلك القصوص للعمل على تزيين
محراب المسجد الجامع • ويقول ابن عذارى انه حضر بالفعل
مع قصوص الفسيفاء صانع بيزنطى ساهم فى وضعها فى
مكانها • كما انه علم طائفة من صناعات قرطبة هذه الصناعة •
وبعد أن انتهت مهمته ، استأذن العودة الى بلاده فاذن له وخلع
عليه • (١٨)

وتقوم زخارف هذه الفسيفاء على العناصر النباتية ،
وعلى الكتابات العربية التى تتضمن نصوصا قرآنية ، ونصوصا
تاريخية ، تؤكد عمل الفسيفاء فى عصر (الحكم المستنصر)
اذ جاء فيها (بسم الله الرحمن الرحيم - أمر عبد الله
الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله موليه وحاجبه جعفر بن
عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذه الفسيفاء للبيت المكرم
فتم جميعا بعودة الله تعالى سنة أربع وخمسين وثلاث مائة) •

وتبرز لنا هذه الكتابة فى لون أزرق جميل على أرضية
مذهبة ، أو تنعكس الآية فتبدو مذهبة على أرضية زرقاء اللون
والى جانب هذين اللونين الذهبى والأزرق تترى الأخضر
والاصفر والبنفسجى والابيض ، وهذا التباين فى الالوان قد
أكسب المعراب جمالا رائعا • (١٩)

الفسيفاء فى عصر المماليك

وازدهر نوع آخر من الفسيفاء فى مصر على عهد
المماليك ، وهو الفسيفاء المصنوعة من المكعبات الصغيرة من
الرخام • وكان أكثر استعماله فى المعاريب والوزرات
بالمساجد ، كما كانت تصنع منه الفسقيات والاحواض ، فضلا
عن استعماله فى زخرفة الارض وما الى ذلك •

ومن ابداع امثلة هذه الفسيفاء الرخامية صفة فى دار
الاثار العربية بالقاهرة ، وحوض فى متحف فكتوريا وألبرت •
ومنها ايضا محراب المدرسة الطبرسية بالجامع الأزهر • (٢٠)

ختام

لقد تجلت عبقرية الفنان العربى المسلم أروع ماتجلت
فى عمل الفسيفاء (الموازيك) وان هذه الروائع
الفسيفائية الموجودة فى أكبر المساجد فى العالم الاسلامى
تكشف لنا أنه لم يكن القصد من عمل الفسيفاء الا الهدف
التجمل والتعبير عن أقصى حالات السعادة • (٢٢)

الهوامش :

(١) الدكتور زكى محمد حسن :

فنون الاسلام ص ٦٤٣

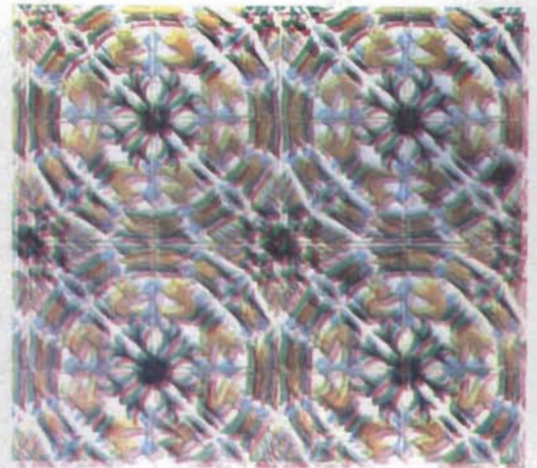
الطبعة الاولى / ١٩٤٨ مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر / القاهرة

(٢) نفس المصدر ص ٦٤٣ - ٦٤٧

Creswell : Early Muslim Architecture I, P. 227



منظر نهري مفصل : قرية بالقسيقساء سنة ٧١٥ م على
الجدار الغربي من رواق المسجد الكبير في دمشق .



تمثل هذه الصورة ، قطعة من القسيقساء الذي تفنن
في انتاجها اجدادنا العرب في الفردوس المفقود ، ولا يزال
القوم في الاندلس يقلدون العرب في انتاج مثل هذه
القسيقساء الرائعة الاشكال والالوان .

- (٤) فنون الاسلام ص ٦٤٧
(٥) د- عفيف بهنسي :
جمالية الفن العربي ص ٥٢
سلسلة (عالم المعرفة) الكويت - ١٩٧٩
(٦) فن التصوير عند العرب :
ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي
بغداد - وزارة الاعلام .
(٧) جمالية الفن العربي الاسلامي ص ٥٢
(٨) نفس المصدر ص ٥٣
(٩) فنون الاسلام ص ٦٤٨
(١٠) نفس المصدر ص ٦٤٧ - ٦٤٨
(١١) نفس المصدر ص ٦٤٩
(١٢) جماليات الفن العربي الاسلامي ص ٥٣ - ٥٤
(١٣) سامراء العالية ، وهي مدينة عريقة ، تبعد عن بغداد
حوالي (١٢٠) كيلو مترا الى الشمال .
Lamm : Das Glas von Samarra. pp. 115 - 121
وانظر : فنون الاسلام ص ٦٤٩ - ٦٥١
(١٥) فنون الاسلام ص ٦٥١
(١٦) فنون الاسلام ص ٦٥١ - ٦٥٢
(١٧) ورث البيزنطيون طريقة الزخرفة بالقسيقساء عن
الرومان ولكنهم طوروا بها ، فبعد ان كانت فصوصها
تصنع من العجر الملون أو العصي الملون أو الصدف ،
صنعها البيزنطيون من الزجاج ، وبعد أن كان الرومان
يزينون بها أرضية العمارات بصور من حياتهم الاجتماعية
ومناظر من عقائدهم الدينية ، اقتصر البيزنطيون على
استعمالها في تزيين الجدران بصورة مستمدة من الكتاب
المقدس ، وتعتبر كنيسة (آيا صوفيا) في اسطنبول
أروع أمثلة القسيقساء البيزنطية ، إذ تزدهن جدرانها
بصور القديسين مرقص في مدينة البندقية تزدهن في
أماكن متفرقة منها بصور دينية جميلة ، وكنيسة
(رافنا) في ايطاليا بها كذلك أمثلة رائعة من
القسيقساء البيزنطية . وقد ورث المسلمون هذه
الطريقة وزينوا بها قبة الصخرة في القدس والمسجد
الاموي في دمشق وقصر هشام في خربة المفجر ، وكلها
من آثار الامويين في الشام .
- الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون
الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٧١ - ٧٢
دار الثقافة - بيروت .
(١٨) مانويل جوميت مورينو :
الفن الاسلامي في اسبانيا - الترجمة العربية ص ١٦٤
القاهرة / ١٩٦٨ م .
(١٩) الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٨٣
(٢٠) فنون الاسلام ص ٦٥٤
(٢١) شريف يوسف :
الزخارف والزينة في العمارة العربية الاسلامية .
مجلة (الرواق) - العدد الخامس ص (٢٧) بغداد
- ١٩٧٩ م .
(٢٢) جماليات الفن العربي الاسلامي ص (٥١)

منذ بدء الخليقة بدأت محاولات الانسان
التعبير والوصف عما يعيش في اعماقه .. افر
محاولة الانسان .. ومع بدايه المحاولات جاء
تجمع الدراسات في معظمها - مقدم المحاولات كم
بالإيقاع والنغم المصاحب له - محاولته التي اتسمت
في الفولكلور في كل البلاد ، ولعل ارتباطها
بالمناسبات العامة والخاصة التي يحتفل بها المجتمع
كان له أثر كبير في ازدهارها وانتشارها واحتفاظ
المجتمع بها .. وترديده لها كلما دعت الحاجة الى
ذلك .. وكما كانت هناك مناسبة يمكن أن تسهم
فيها الاغنية الشعبية بدور فعال ..

